مركز دراسات وبحوث الدول النامية
CENTER FOR THE STUDY OF
DEVELOPING COUNTRIES

رأس المال الاجتماعي
لدى الشرائح المهنية من الطبقة الوسطى

أ.د.أحمد زايد
أستاذ علم الاجتماع،
ووكيل كلية الآداب لشئون الدراسات العليا
جامعة القاهرة

د.آمال طنطاوى
مدرس علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة القاهرة

محمد عبدالبديع
مدرس علم الاجتماع
كلية الآداب- جامعة القاهرة

الإسكندرية
يوليو ٢٠٠٣

رأس المال الاجتماعى
لدى الشرائح المهينة من الطبقة الوسطى

نقدم فى هذا التقرير فكر البحث ومنهجه، كما نقدم صور للتجريب فى كتابة المادة الميدانية التى توفرت حتى الآن.

أولاً: مشكلة البحث

تشكلت الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى عبر تطور استغرق أكثر من القرن ونصف القرن. فقد بدأت بذورها الأولى تنبت على أثر سياسات التحديث التى انتهجها محمد على، حيث بدأت فئات من المصريين تحتل المكانة الوسطى بين النخبة الحاكمة وبين فئات الشعب العريضة فى الريف والحضر. وتكونت هذه الفئات من ضباط الجيش، وكبار الموظفين فى أجهزة الدولة، والتجار، والصناع، ومشايخ القرى الذين كانوا يتمتعون بمزايا خاصة ميزتهم عن غيرهم. ولقد بدأت معالم هذه الطبقة تظهر بشكل واضح مع بدايات القرن العشرين، حيث استقرت قوانين الملكية الزراعية التى كانت قد شرعت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وتعمقت الأساليب الرأسمالية فى الإنتاج من خلال التواجد الاستعمارى المباشر، واتسعت قاعدة مشاركة المصريين فى الحياة العامة. وانعكس تبلور معالم الطبقة الوسطى؛ فى درجة مشاركتها فى حركة الحداثة، التى انعكست فى حركة الصحافة، ونشأت الأحزاب وتأسيس الجامعة. وبلغ هذا التبلور لشرائح الطبقة الوسطى مداه فى المشاركة فى حركة الإصلاح الاجتماعى والسياسى التى قادها سعد زغلول، وطلعت حرب وطه حسين وغيرهم.

واتضحت معالم هذه الطبقة بجلاء مع منتصف القرن العشرين – وتكونت من جماعات من أصحاب المهن المتخصصة فى مجالات الإدارة والقانون والاقتصاد والطب والتعليم بالإضافة إلى ضباط الجيش؛ ومن متوسطى ملاك الأرض الزراعية؛ ومن متوسطى التجار. وهذه الطبقة هى التى أفرزت جماعة الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة يوليو ١٩٥٢. وقد اتسعت هذه الطبقة بل تضخمت على أثر سياسات رأسمالية الدولة التى شكلت المنظومة الاقتصادية لهذه الحقبة. ثم ما لبثت أن بدأت سياسات الانفتاح الاقتصادى وما تبعها من سياسات التكيف الهيكلى وخصصة القطاع

العام. وقد أثرت هذه السياسات على الطبقة الوسطى، فبدأت أولاً تفقد أهميتها فى قيادة الدور الاجتماعى والسياسى فى المجتمع، وبدأت تعانى من أزمة تفكك داخلى.

وتفترض هذه الدراسة أن التغيرات التى حصلت للطبقة الوسطى قد أدت إلى أن تتحول هذه الطبقة عبر مراحل ثلاث من تكوينها إلى طبقة تسود فيها الفردية والخلاص الفردى وتتفكك صور التحامها بالهدف العام وبالمعايير العمومية، وأدى ذلك إلى تناقص حدود الثقة فى ممارساتها العامة وتناقص صور التضامن والميول الاندماجية داخلها وبينها وبين الطبقات الأخرى.

ويسعى هذا البحث إلى اختبار هذه الفرضية، ويحاول تفسير المتغيرات التى ساهمت فى تشكل هذا الظرف للطبقة الوسطى.

ثانياً: المنهج

ركزت هذه الدراسة على استراتيجية بحثية تقوم على جمع بيانات تفصيلية عن عدد محدود من الحالات ولذلك فقد توخت الأسلوب الكيفى فى الدراسة. ولتحقيق هذا الهدف استعانت الدراسة بأداة المقابلات المفتوحة لجمع بيانات تفصيلية عن مسيرة الحياة وتشكل رأس المال الاجتماعى عبر هذه المسيرة. وفيما يلى وصف للأداة الرئيسية المستخدمة فى الدراسة، ووصف للطريقة التى اختيرت بها الحالات التى درست.

أ- نحو تعريف عام لرأس المال الاجتماعى

ثمة ميل فى هذه الدراسة نحو فهم متسع لمفهوم رأس المال الاجتماعى. فرأس المال الاجتماعى يشتمل على الموارد الذاتية والاجتماعية المادية والمعنوية والرمزية التى يستخدمها الفرد فى ممارساته الاجتماعية، وكذلك الطريقة التى يستخدم بها الفرد موارده إيجاباً أم سلباً، ربحاً أم خسارة، صيانة أم هدراً. ونميل هنا إلى التفرقة بين نوعين من رأس المال الاجتماعى:

أ- رأس المال الاجتماعى (العضوى) ويضم كل الموارد المادية وغير المادية التى يمكن أن تستخدم فى الممارسات الاجتماعية.

ب- رأس المال الاجتماعى (غير العضوى أو المتحرك) ويشير إلى الطريقة التى يحافظ بها الشخص على ما يملكه من رأس مال اجتماعى، وطريقة استثماره له أو هدر ما لديه من إمكانية.

يمكننا هذا التقسيم من أن نحلل رأس المال الاجتماعى فى إطار دينامى لا بوصفه كماً يوصف أو يقدر بأرقام. كما يمكننا من أن نحلل رأس المال الاجتماعى فى سياقه الاجماعى والثقافى والتاريخى. بحيث يصبح رأس المال الاجتماعى رصيداً من البناء الاجتماعى برمته.

ب- تصميم دليل دراسة الحالة

استعانت هذه الدراسة بأسلوب الدراسة المتعمقة لحالات محدودة من شريحة أصحاب المهن المتخصصة، وقد قام فرق البحث بتصميم دليل لإجراء المقابلات المتعمقة التى تتبع سيرة حياة الفرد منذ الميلاد والنشأة، ثم تتطرق إلى أمور تتعلق برأس المال الاجتماعى وطريقة استخدامه أو هدره. ويتكون الدليل من سبعة بنود نلخصها على النحو التالى: (انظر الدليل كاملاً كملحق فى نهاية هذا التقرير):

١- **تاريخ الحالة:** الميلاد – ذكريات الميلاد – ظروف النشأة فى أسرة – رحلة التعليم – حركته عبر المكان – رحلته عبر الزمان والمكان وأهم ذكرياتها – ملامح التشابه والاختلاف بينه وبين الجيل السابق – المستوى الاقتصادى والتعليمى والمهنى للأسرة التى نشأ فيها – وصف للأسرة الحالية.

٢- **حالة رأس المال الآن:** توصيف المهنة – العمل الإضافى – المظاهر المحيطة بالمهنة – الحياة المهنية والتغيرات التى حدثت للفرد – مصادر الدخل.

٣- **الرموز الحياتية:** وسائل الانتقال المستخدمة – الأجهزة المنزلية – المسكن – الممتلكات ونوعيتها – السفر للخارج – التصييف – الاحتفالات الخاصة – عضوية النوادى – الحج والعمرة – العلاقة بأماكن العبادة والمواظبة على الصلاة.

٤- **الجوانب الذاتية فى بناء الأسرة:** نظرة الأسرة لنفسها – الدخل ومدى كفايته ووسائل التغلب على نقص الدخل – مدى تمايز الأسرة عن الأسرة الأخرى – مساعدة الأسرة للآخرين – نظرة الأسرة لأولادها – المشكلات التى تواجه الأسرة – نضال الأسرة من أجل تحسين أحوالها.

٥- **الثقة والتكامل الشخصى:** ماهية الثقة – مواصفات الأشخاص الموثوق بهم والغير موثوق بهم وتغيرها الزمن وذكرياته حول هذه المواصفات – الثقة فى إطار العمل والجيرة والقرابة والآخرين – الثقة بالدولة ورموزها – الثقة بالصحافة ورجال الأعمال وأصحاب المهن المتخصصة – التصرف فى حالة وجود مصلحة لدى الحكومة –

التصرف فى حالة وجود مشكلات مع الجيران – مشاعر العدوان من زميل أو قريب والتصرف فيها – الحذر فى التعامل مع الآخرين ومدى وجوبه – الشعور بالأمان فى الحياة – الخوف على مستقبل الأبناء – من يفسدون الحياة ومن يجملونها – زواج أحد أفراد الأسرة والأمور المترابطة بالتفاوض – مزايا وعيوب وإنجازات الشعب المصرى – الثقة فى من نتعامل معهم يومياً.

٦- **الرضا عن الحياة والتعاطف:** الرضا عن الظروف الحالية – الرضا عن المهنة – الرضا عن المسكن – الرضا عن الحياة فى مصر – مشاعره تجاه الفقراء ومن هم وكيف نساعدهم – مشاعره تجاه الأغنياء فى مصر وإدراكه لدورهم – مشاعره تجاه زملاء العمل والجيران والأقارب – إدراكه لدور وسائل الإعلام فى مصر – إدراكه لدور التعليم – إدراكه للحالة الصحية للمحيطين به – تصوره لدوره لو تولى منصباً كبيراً.

٧- **شبكة العلاقات الحديثة:** عضوية الجمعيات الأهلية وصور وحدود الإشباع من هذه القضية – عضوية النوادى – عضوية الأحزاب – عضوية النقابات – العلاقات بذوى النفوذ وفوائدها – الانتماء للعائلة.

ج- اختيار الحالات للدراسة الميدانية

تم اختيار ٣٠ حالة من أصحاب المهن المتخصصين فى ضوء عدد من الشروط هى:

- تمثيل تخصصات مهنية متنوعة.
- تمثيل مناطق مختلفة فى القاهرة والجيزة وبعض المحافظات.
- تمثيل فئات عمرية مختلفة.
- أن تشتمل الحالات على عدد من الإناث: لتطوير استبصار نحو استكشاف هذا المتغير.

ثالثاً: رأس المال الاجتماع: حوارات نظرية حول المفهوم

تموج مراكز صناعة الفكر السوسيولوجى والسياسى بحركة نشطة وواسعة النطاق. وبقدر ما هى مصدر ثراء وغنى، فإنها بنفس القدر مصدر اضطراب وأزمة. فنحن نشهد حركة متسارعة تسارعاً مدهشاً فى إنتاج مفاهيم ونظريات جديدة، يتقادم

الكثير منها قبل أن يرسخ أقدامه. وتحاول هذه الحركة اللاهثة للمفاهيم والنظريات أن تلاحق الوقائع أو الظواهر الناجمة عن التطورات الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية والثقافية المتسارعة التى يخبرها النظام الرأسمالى، وفى خضم أزمته الراهنة، ومقابلة ملابسات الظرف الأوروبى الشرقى وما استتبعه.

وبالتالى تعكس التنظيرات والمفهومات التى تظهر فى هذه السنوات الأخيرة الانشغال والتفاعل مع تحولات الأوضاع فى المجتمعات الأوروبية. وتعكس أيضاً الرغبة فى إعادة بناء التعاون داخل مجتمعات تجتاز مرحلة إعادة البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى. وبعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، ومع انتهاء انقسام العالم إلى شرق وغرب. وانحسار الحديث عن بديل يحظى بدرجة كافية من الثقة للنموذج السائد للرأسمالية، بدت الحاجة الملحة هى التنظير داخل معادلة التفاهم مع الرأسمالية.

وفى إطار حدود هذه المقدمة المختصرة يمكن الالتفات إلى تعاظم التمثيلات المرتبطة لمفهومى المجتمع المدنى Civil Society ورأس المال الاجتماعى Social Capital، وهو ما يجرى فى سياق تعزيز الديموقراطية الليبرالية. ومثل هذا الارتباط هو نقطة مركزية فى تقصى مفهومنا الأساسى الذى نود الاشتغال عليه، أعنى رأس المال الاجتماعى. وسوف أعود إلى مناقشة هذه القضية بعد قليل. ولكن قد يكون من المفيد أولاً، التعرف على تاريخ استخدام هذا الاصطلاح "رأس المال الاجتماعى" ولماذا هذا المصطلح؟

المصطلح فى سياق تاريخه

رغم حداثة المناقشات التى تحاول تطوير مفهوم رأس المال الاجتماعى، إلا أن ثمة استخدامات مبكرة، ترجع إلى العقد الثانى من القرن الماضى بواسطة دراسة Lyda Judson Honifan (بمركز المجتمع المحلى ١٩٢٠)، التى ناقشت أن "رأس المال الاجتماعى يشير إلى أصول حقيقية تظهر غالباً فى الحياة اليومية للناس: والمقصود هنا ممارسة الود مع الآخرين، الشعور بالعضوية فى أحد الكيانات القريبة، المشاركة الوجدانية، الاتصال الاجتماعى وسط الأفراد والأسر التى تشكل وحدة اجتماعية"[1]. كما ظهر استخدام هذا المفهوم أيضاً فى دراسة Jane Jacobs فى كتابه (الحياة والموت

(1) Michael Woolcock, Social Capital and Economic Development: Towards a Theoretical Synthesis and Policy Framework, Theory and Society, 27.

للمدن الأمريكيـــة الكبيرة فى عام ١٩٦١)[١].

وإذا كانت هذه الدراسات قد قـدمت اسـتعمال مبكـر لاصـطلاح رأس المـال الاجتماعى، فإن عمل أليكس دى توكفيل الأسبق (١٨٣٥) يمثل مصدر إلهام كثير مـن المناقشات التى تدور حول التطوير الحديث لمفهوم رأس المال الاجتماعى، وإن لم يُشر اويلتزم صراحة بذات الاصطلاح، ولكن تحديده للوظيفـة السياسية لهذا النوع من رأس المال تصبح موضع إثارة الآن، ويرى البعـض أن تعبيره فائق البراعة عن فن الترابط Art of Association من أفضـل التوصيفات للترابط المدنى[٢]. وتتم استعادته كثيراً من جانب أشهر التحليلات الجارية الآن.

وخلال السنوات القليلة الماضية ينمو الاتفاق على استخدام مصطلح "رأس المـال الاجتماعى" للإشارة إلى السلوك التعاونى المعمم فى المجتمع. وربما يرجـع ذلك إلـى أن المصطلح يمنحنا حالة التأثير والمكانة التى تشير إليها الأشكال الأخرى مـن رأس المال (أى المالى - الفيزيقى - البشرى)، ويدعم هذا تطور محاولات وإجراءات قياس رأس المال الاجتماعى، وتحديد مقداره، ومن ثم توفر إمكانية نشر منافعه وتجنب إهداره وتدهوره[*].

تكشف هذه الإشارة التاريخية المختصرة عن استعادة المفهوم من استخدامات مبكرة وسابقة وتطويره وإعادة زرعه فى الساحة السوسيولوجية المعاصرة. وقبل أن يمضـى العقد الأخير من القرن العشرين عن هذه الساحة، حتى أصـبح مفهـوم رأس المـال الاجتماعى من أكثر التركيبات النظرية التى تنمو - خاصة من داخل علـم الاجتمـاع الاقتصادى الجديد - إثارة للتساؤل. وسرعان ما ينتشر المصطلح ويتخلل قاموس العلوم الاجتماعية والدوائر السياسية. رغم عدم توافر تنظير متبلور كافى يعمل مـن خلالـه. ويبدو أن هذا التبلور يظل فى الوقت الحاضر رهن إثارة الأسئلة الإمبيريقية، والعمـل من داخل هذا المستوى.

نقلاً عن:
Tine Rossing Feldman and Susan Assaf, Social Capital Conceptual Frameworks and Empirical Evidence: An Annotated Bibliography, The World Bank. Social Development Family Environmentally and Socially Sustainable Development Network January, 1999, P. 2.
(1) Ibid., P. 2.
(2) Francis Fukuyama, Social Capital, Civil Society and Development, Third World Quarterly. Vol. 22, No.1, 2001, P. 11.
(*) من المفارقات التى سوف نلاحظها أن كثرة تداول واستخدام الاصطلاح لا يصاحبها تعريفـات واضـحة متماسكة له.

وربما نكون الآن فى وضع مناسب للتعرف على دواعى وتطور تمثيلات المفهوم الحديث لرأس المال الاجتماعى.

اتجاهات التمثيل

شغلت قضية التحديث Modernization محور اهتمام العلوم الاجتماعى، ولسنوات طويلة ظل الافتراض السائد أن هذا التحديث يستلزم إحلال "تقدمى" لميكانيزمات رسمية تنظم التعاون والتناسق فى المجتمع كبديل عن الميكانيزمات غير الرسمية. وهو ما يعبر عنه موقف ماكس فيبر حول البيروقراطية العقلانية كجوهر للحداثة. ويبدو أن مثل هذا الافتراض يخضع للمراجعة الآن فى إطار بحث رأس المال الاجتماعى.

والسؤال الذى يُعاد طرحه من جديد يتلخص فى: ما الذى يجعل الناس والمجتمعات تتحد وتتماسك معاً لتشكيل وتعزيز النجاح الاقتصادى خاصة، والتنمية عامة؟ وبذلك تكون بؤرة التساؤل عن الجوانب الاجتماعية الفاعلة فى هذه العملية. خاصة تلك الاعتبارات التى دائماً ما تم تجاهلها أو إهمالها.

وبذلك يستند التمثيل المتزايد حول رأس المال الاجتماعى إلى استكشاف طبيعة الوظائف التى يؤديها هذا النوع من الرأس مال فى إطار الديموقراطية الليبرالية للسوق الحر. وتبنى التصورات الشائعة فى بحوث رأس المال الاجتماعى على معاينة تجارب تتراجع فيها فاعلية التنظيمات الرسمية والقانونية، ويلعب فيها رأس المال الاجتماعى دوراً هاماً لتحقيق فعل التعاون. ولذلك تؤكد المناقشات الدائرة الآن إلى أن قضية التعاون المستند على معايير غير رسمية يشغل جزءاً هاماً فى الاقتصادات المعاصرة. فمؤشرات انخفاض تكلفة التبادلات غير الرسمية تبدو ظاهرة، كما أن الطابع غير الرسمى للتعاملات يُزيد من وتيرة التبادلات. وتتدعم هذه القضية، من وجه آخر، بالنظر إلى البيئات التى لا تمتلك التقنية العالية، إذ غالباً ما يؤدى رأس المال الاجتماعى إلى فعالية أكبر بالمقارنة بمحددات التعاون الرسمى فقط. وإذا كانت هذه الإشارة المختصرة تمس الوظيفة الاقتصادية، فإن الوظيفة السياسية تمثل بُعد هام أيضاً. حيث يتشكل مجال محمى للحرية تُغل فيه يد الدولة ومع استمرار هذا المجال محمياً يكون قادراً على تنظيم نفسه. ويعنى ذلك النمو المستمر لفاعلية المجتمع المدنى. بينما تؤدى المستويات المنخفضة لرأس المال الاجتماعى إلى اختلالات وظيفية سياسية. فالتمركز الإدارى يؤدى إلى صرامة مفرطة، ونسق سياسى مفتقد لسرعة الاستجابة، فضلاً عن عدم فعالية

الحكومات المحلية، وانسراب الفساد فى أنحاء شتى[١].

وتتحدد منطقة الاهتمام فى البنى والممارسات الخاصة بالمجتمع المدنى، مع فحص كيفية تحقق درجة عالية من الكفاءة فى المجتمعات الديموقراطية الليبرالية. وفى إطار هذه التصورات تتوالى الكتابات سواء فى مجال علم السياسية أو علم الاجتماع لتتخذ طابعاً احتفائياً، أكثر منه نقدياً، بكل من مفهوم رأس المال الاجتماعى والمجتمع المدنى. وكلاها يستند - كما رأينا - على افتراضين أساسيين هما توافر آليات الديموقراطية، وتوافر آليات السوق.

وقد اعتنقت النظرية الاجتماعية الغربية هذه المفهومات بحماس وشغف خلال العقدين الماضيين. وربما يكمن الجانب الأكبر من تفسير هذا الحماس والشغف بإعادة استكشاف جديد لمفهوم وشروط الديموقراطية، والشعور بأن صيغ تطوير المجتمع المدنى وإدارة التغيير والتنمية من أسفل أكثر شمولية وكفاءة، وذات قاعدة أكثر صلابة من الديموقراطية الرسمية الجامدة، وتدخل العنصر الإدارى/ الحكومى فى ضمان الرفاه. ويجرى ذلك لصالح شروط مواطنة حقيقية، أكثر نشاطاً وفعالية.

ولذلك فالقضية التى تتم المراهنة عليها فى كثير من الأدبيات التى تعمل حول مفهوم رأس المال الاجتماعى ترجح النظر إليه بوصفه عملاً غير محايد فيما يتعلق بالسلطة، ويمثل جوهر قدرة المجتمع المدنى على تحديها[٢].

ووفقاً لهذا المنطق يميل الفهم المشترك الذى نلاحظه فى كثير من الدراسات التى تأكيد وصف رأس المال الاجتماعى باعتباره المادة الخام للمجتمع المدنى. الذى يتم خلقه خلال التفاعلات اليومية بين الناس. ولا يوجد مستقراً عند هؤلاء الناس، أو داخل الشخص، أو داخل البناء الاجتماعى، ولكنه هناك فى ذلك الفضاء فيما بين الناس. فرأس المال الاجتماعى ليس ملك يمين تنظيم أو منظمة، ولا دولة أو سوق، ومع ذلك تستطيع هذه الكيانات معاً الانشغال به والمشاركة فى إنتاجه[٣].

ويعنى ذلك أن بناء رأس المال الاجتماعى أمر عسير بحق. فهو لا يتشكل أو يوجد

---

(١) يراجع الكتابات التالية:
Froncis Fukuyama, Social Capital, Civil Society and Development, Op. Cit., PP. 11-12.
(2) Claus Offe, Civil Society and Social Order: Demarcating and Combining Market, State and Community, Archives Eutopéennes De Sociologie, XLI, 2000, PP. 71-94.
(3) Paul Bullen and Jenny Onyx, Measuring Social Capital in Five Communities in NSW, www. mapl.com.ou/az.htm. PP. 1-2.

بسهولة بواسطة السياسة العامة[1]. لأنه فى حقيقته تعبير دقيق عن جوهر الحيوية الجمعية، التى ينمو معها الفعل الطوعى الجمعى المتجاوز للفعل الاعتيادى لسياسة انتهاز الفرص المجافية لمبادئ الأخلاق. وهنا تكمن قيمة رأس المال الاجتماعى فى كونه موارد أخلاقية معممة فى المجتمع المحلى[2].

ومع إمكانية تفاوت حيازة المجتمع من رأس المال الاجتماعى، فإن الطابع التلقائى له فى الجماعات المنظمة يغدو هاماً لتفعيل وظيفى ملائم للمؤسسات الرسمية العامة. بينما تبقى جذور رأس المال الاجتماعى كامنة فى الأسرة، والمجتمع المحلى وخبرات التربية والتعليم. وبذلك تتفق معظم الكتابات على تعريف رأس المال الاجتماعى كواقعة تتبنى من أسفل، يبدأ مع الناس أثناء تشكيل روابط وشبكات اجتماعية تستند على معايير للفعل، ومبادئ الثقة، وتبادل المزايا والمنافع.

أشرت سابقاً إلى مشكلة التنظير فى بحوث رأس المال الاجتماعى. وفى حدود الحيز الضيق المتاح لنا الآن، يمكننا تقديم استعراض مختصر لأهم الحوارات الدائرة بشأن قضية راس المال الاجتماعى. وهنا نواجه مناقشات تتصل بتراوح نطاق التحليل. ونميل إلى عرض هذه الحوارات بالاستناد إلى مستوى الفائدة التى قد يتم تراكمها من أجل الجماعة أو من أجل الفرد. وبالتالى يمكن أن نقابل هنا منظورين[3]:

المنظور الأول

ويكون محور التركيز فيه على استخدام رأس المال الاجتماعى بواسطة الأفراد، وكيف يقتربون ويستخدمون الموارد المترسخة فى الشبكات الاجتماعية لتحقيق عائد من خلال الأفعال النفعية، أو المحافظة على المكاسب أو المزايا من خلال الأفعال التعبيرية Expressive Actions. وفى هذا المستوى الاتصالى، ينظر إلى رأس المال الاجتماعى كشئ مماثل لرأس المال البشرى، فالاستثمارات بقدر ما تتشكل بواسطة الفرد، وبقدر ما تعود الفائدة المتوقعة إلى الفرد فحاصل جمع مثل هذه الفوائد يفيد الجماعة أيضاً. وتتمثل بؤر التحليل وفقاً لهذا المنظور فيما يلى أولاً: إلى أى مدى يستثمر الأفراد فى العلاقات الاجتماعية. ثانياً: كيف يمسكون بالموارد المنطوية أو الراسخة فى هذه العلاقات لتوليد عائد.

---

(1) Francis Fukuyama, Social Capital, Civil Society and Development, Op. Cit., P.7.

(2) Robert D. Putnam, The Prosperous Community Social Capital and Public Life www.pros.pect.org/print/v4/13/putnam-r.html. PP. 1-8.

(3) Nan Lin, Social Capital: A Theory of Social Structure and Action, Cambrige University Press, 2001, P. 21.

ويمكن الحديث عن نموذجين للموارد يستطيع الفرد الوصول إليها واستخدامها: ١-الموارد الشخصية: التى يتم امتلاكها بواسطة الفرد وقد تشمل ملكية سلع مادية بالإضافة إلى السلع الرمزية (مثل الشهادات العلمية).٢-الموارد الاجتماعية: التى يجرى الاقتراب منها خلال الروابط أو الاتصالات الاجتماعية للفرد. ومدى تبادل الاعتماد وامتداده وتنوع الروابط الاجتماعية. فالأفراد لديهم موارد اجتماعية متباينة قابلة للاستثمار.

وهكذا يمكن للموارد أن تُقترض بهدف تحقيق المكاسب. فالسيارة على سبيل المثال، يمكن استعارتها من صديق لنقل سلع للأسرة، والكلام الطيب قد يكون سبيلاً للحصول على وظيفة بتأثير الحضور فى العلاقات. ومن الأمور الهامة لتعظيم الأرباح الاجتماعية، حجم ونوعية الموارد الاجتماعية، وتفوق الفوائد المتوقعة للأفراد من هذه الموارد الاجتماعية قيمة الموارد الشخصية.

وفى إطار هذا المنظور يأتى عمل هنك فلاب Henk Flap، ويرى رأس المال الاجتماعى كعملية تعبئة للموارد الاجتماعية. ويحدد فلاب ثلاثة عناصر لرأس المال الاجتماعى: ١-عدد الأشخاص داخل الشبكة الاجتماعية، والذين يصبحون على استعداد لتقديم المساعدة أو التعزيز متى تمت دعوتهم لذلك، ٢-قوة العلاقة، وتشير إلى سرعة الاستجابة للمساعدة، ٣-موارد الأشخاص المنضمين. وبذلك يمثل رأس المال الاجتماعى عند فلاب موارد متاحة شريطة أن يتم تبديل وتغيير العلاقات القوية بالأنا(١).

وتندرج أطروحة رونالد بيرت Ronald Burt التى تركز على مواقع الشبكات الاجتماعية فى إطار هذا المنظور كما يرى لين Lin. ويفهم رأس المال الاجتماعى فى إطار أطروحة الثقوب البنائية Structural Holes لبيرت باعتباره رأس مال يتم امتلاكه بواسطة كل أطراف العلاقة بالاشتراك والتعاون فيما بينهم(٢).

ويعكس هذا المنظور، الاهتمام بالأنا الفردية لتعبئة الموارد من خلال الشبكة الاجتماعية التى تندمج فيها الأنا. ويكون التركيز وفقاً لذلك، على النتائج الفردية مع قدر من الاهتمام بالبناء الاجتماعى الخاص.

---

(١) أنظر طرح فلاب فى المرجع السابق، ص ص ٢١-٢٢.

(٢) ثمة اختلاف واضح بين فهم لين ومعالجة توماس فورد براون خاصة لأطروحة بيرت، لمزيد من التفصيل أنظر:

Thomas Ford Brown, Theoretical Perspectiveson Social Capital, 1996, PP. 1-15.

المنظور الثانى

ويركز على رأس المال الاجتماعى فى مستوى الجماعة، ويمكن أن نميز داخل هذا المنظور محورين: ١-كيف تطور جماعات معينة درجات متباينة من رأس المال الاجتماعى كأصل جمعى Collective Asset، ٢-كيف يعزز هذا الأصل الجمعى فرص الحياة لأعضاء الجماعة. وفى إطار هذا المنظور تبرز أعمال بيير بورديو، ويمثل عمل جيمس كولمان وروبرت بوتنام نقطة الانطلاق التى تدفع المناقشات والدراسات حول هذا المفهوم إلى ساحة التداول الواسع. ومع هذا المدخل يأتى التأكيد على جوهرية تفاعلية الشبكات والأفراد فى تطوير رأس المال الاجتماعى. مع استكشاف العناصر والعمليات الفاعلة فى إنتاج الأصول الجمعية وإدامتها.

يرى بورديو أن فهم البناء والوظيفة فى العالم الاجتماعى يستلزم فهم رأس المال فى أشكاله المختلفة، وليس فقط فى شكل واحد كما تفعل النظرية الاقتصادية. وبذلك يُميز بين ثلاثة أشكال لرأس المال: الاقتصادى، الثقافى، الاجتماعى. ويهتم بورديو بقابلية التحول فى أشكال رأس المال، وكيف تنتقل هذه الأشكال من صورة اقتصادية/ ثقافية/ اجتماعية إلى أخرى. وكيف تتأسس خلال هذه العملية الاستراتيجيات التى يتم تبنيها من جانب الأفراد والجماعات لضمان إعادة إنتاج رأس المال[١]. ويتألف رأس المال الاجتماعى - مع قراءة بورديو - من التزامات أو ارتباطات اجتماعية، تكون مجموعة الموارد الفعلية أو الممكنة والتى تصبح مرتبطة بإحراز شبكة متينة للعلاقات خاضعة للتأسيس فى ظل توافر درجة من التعارف والإدراك المتبادل - بتعبير آخر، هذا الوضع يتلخص فى شروط حالة العضوية فى جماعة. وتزود هذه الجماعة أعضائها برأس مال يتم امتلاكه جمعياً، ويصبح كرصيد فى حسابهم. أن مقدار رأس المال الاجتماعى الذى يمكن أن يستحوذ عليه فاعل مفترض يعتمد على حجم شبكة الروابط وما يمكن أن يعبئه بفعالية وعلى حجم رأس المال (الاقتصادى، الثقافى، أو الرمزى) الذى يستحوذ عليه الشخص خلال هؤلاء الذين يرتبط بهم. على أن القضية التى تظل أساسية فى عمل بورديو هى حضور رأس المال الاجتماعى كأصل جمعى يتشارك فيه

---

(١) نعتمد هنا فى عرض مفهوم بورديو على ما يلى:
- Nan Lin, Social Capital: A Theory of Social Structure and Action. Op. Cit., PP. 21-23.
- Martti Siisiainen, Two Concepts of Social Capital: Bourdieu VS. Putnan, Paper Presented at Istr Fourth International Conference "The Sector: For What and For Whom?" Trinity College, Dublin Ireland July 5-8, 2000. PP. 9-19.

أعضاء جماعة معينة، ذات حدود واضحة، والتزامات متبادلة، وإدراك متبادل. وبذلك ينظر بورديو إلى رأس المال الاجتماعى كظاهرة جمعية تتبنى من منظور الفاعلين الذين يستثمرون إمكاناته. وطالما أن عضوية الجماعة تخلق رأس مال اجتماعى له تأثير مضاعف بتأثير الأشكال الأخرى لرأس المال، فهو خاصية تنتج من خلال كلية العلاقات بين الفاعلين.

ورغم أن بورديو لا يصرح فى عمله بمفهوم الثقة - كما يشير مارتى سيسيانى ونان لين - إلا أن تحليله ينطوى عليه ضمنياً، لأن توظيف أعضاء الروابط لرأس المال يجرى فى موازاة عنصر الثقة. فرأس المال الاجتماعى كأصل جمعى يمنح الأعضاء Credits رصيد من الثقة، يتم تأكيد وتعزيز فوائده وأرباحه متى استمر هؤلاء الأعضاء فى الاستثمار فى العلاقات.

وينظر كولمان - أبرز الذين ساهموا فى توسيع نطاق استخدام المفهوم - إلى رأس المال الاجتماعى كتنوع للكينونات المختلفة. ويتضمن مفهومه لهذا النوع من رأس المال عنصرين: أنه يمثل مظهر للبناء الاجتماعى، كما ييسر أفعال معينة للفاعلين كأشخاص أو كشركاء داخل البناء. ويعتمد المظهر البنائى لرأس المال الاجتماعى على مدى تأديته وظيفة لأفراد معينين ينخرطوا فى أنشطة محددة. وبالتالى يمثل موارد فعلية أو ممكنة تدخل حيز التحقق أثناء العلاقات الاجتماعية.

ويميز كولمان نمطين من الأبنية الاجتماعية تبدو هامة فى حضور أشكال متنوعة لرأس المال الاجتماعى. الأول: هو الذى يُحدث انغلاق فى الشبكة الاجتماعية إلى الدرجة التى يصبح فيها كل الفاعلون مرتبطون بموجب الالتزامات Obligations بالإضافة إلى الجزاءات Sanctions التى يمكن فرضها على أعضاء هذه الشبكة. والثانى: عندما يجرى خلق التنظيم لغرض ما محدد، ولكن يتم استعماله لإفادة أغراض أخرى. ويكتسب رأس المال الاجتماعى هيئته - وفقاً لكولمان - عبر صيغ ثلاثة: أولاً: أنه يتعين عندما تعتمد الالتزامات والتوقعات على جدارة البيئة الاجتماعية بالثقة. والمثال النموذجى يتجسد فى دوران وتعاقب روابط التعاون والاعتماد فى الجنوب الشرقى لآسيا بواسطة مجموعات الأصدقاء والجيران، وهو تعبير عن الأهمية البالغة لعنصر الثقة. ثانياً: قدرة المعلومات على التدفق فى كافة أنحاء البنية الاجتماعية والتى تمثل أساس للفعل. ثالثاً: وجود معايير مصحوبة بالجزاءات الفعالة[1].

(١) ويستعمل كولمان فى هذه الدراسة بيانات من دراسة سابقة على طلاب المدرسة الثانوية ليصور كيف=

وهكذا يقدم كولمان مفهوم رأس المال الاجتماعى كأداة تصورية فى إطار طرحه النظرى للفعل الاجتماعى، الذى يدمج فيه المنظور الاقتصادى (من خلال استعارة مفهوم الفعل العقلانى Rational Action كما فى عمله الصادر عام ١٩٨٨ أو الاختيار العقلانى National Choice فى عام ١٩٩٠) بمنظور اجتماعى، وذلك لتحليل البنية الاجتماعية والاختيار الاجتماعى Social Choice. وتتلخص المقولات الأساسية لأطروحة كولمان فى الفاعلين، الموارد، المصالح، الحقوق الفردية، علاقات الثقة، السلطة. ووفقاً لذلك ينتقل تحليل كولمان من الميكرو إلى الماكرو، فعندما ينصب الاهتمام الرئيسى على التبادل الاجتماعى، والسلوك الجماعى وظهور المعايير الاجتماعية، فإن الفاعل الرئيسى هو التنظيم أكثر من الفرد. ويستهدف كولمان تفسير كيف يمارس الفاعلون السيطرة على الموارد التى تعكس اهتماماتهم، وكيف يهتمون بالوقائع والأحداث، أو بنتائجها والتى قد تكون جزء من سيطرة فاعلين آخرين، وذلك من أجل حرصهم على إحراز مكاسب من نتائج هذه الوقائع والأحداث. وهو ما يدفع بدوره إلى انخراط الفاعلون فى التبادلات، وانشغالهم بحركة الموارد. ومن ثم فالعلاقات تفيد وظائف هامة كقنوات تيسير للأفعال. ومن ثم تشكل أساس رأس المال الاجتماعى.

وعندما يستخدم كولمان تحليل شبكات رأس المال الاجتماعى ليفسر السلوك الاجتماعى، فإنه يؤكد على أن إضعاف البنية الاجتماعية لهذه الشبكات يؤدى إلى عدم فاعلية أو عجزر فى التبادلات الاجتماعية. وبذلك يأتى اهتمام كولمان بتفسير كيفية تفويض الأفراد لمؤسسات غير رسمية للتصرف نيابة عنهم، وتوظيف أساليب تقلل الفاعلية المفرطة لحضور السلطة.

ولم يلبث كولمان أن وسع تصوره لرأس المال الاجتماعى ليتضمن علاقات رأسية Vertical Relationships تتصف ببناء هيراركى وتوزيع غير متكافئ للقوة، وأصبح يفترض أن راس المال الاجتماعى مثلما ينتج منافع هامة، فإنه يمكن أن ينتج أيضاً نتائج وتأثيرات غير مفيدة، وقد تكون ضاره بالمجتمع ككل[1].

=يستخدم رأس المال الاجتماعى فى خلق رأس المال البشرى عبر تأثير فى الأسرة والمجتمع المحلى ومن ثم على النمو التربوى للشباب:

James Colman, Social Capital in theCreation of Human Capital, American Journal of Sociology, 94, 1988, PP. 95-120.

(1) James. Coleman, foundations of Social Theory. Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1990.

ونعتمد هنا على العرض الوارد فى:

Tine Rossing Feldman and Susan Assaf: An Annotated Bibliography, Op. Cit., P. 12.

وبطريقة مماثلة قدم اتزيونى تعريف مشابه من خلال مفهومه عن الوحدات أو الجمعيات الاجتماعية Social Collectivities أى الوحدات الرئيسية لصناعة القرار التى تمنح سياق تشكيل القرارات الفردية(١).

ويبنى فوكوياما على مفهوم كولمان، فيعرف رأس المال الاجتماعى كمعيار غير رسمى يهتم بمدى التعاون والتشارك بين الأفراد. وينعكس مردوده فى مجالات متعددة، ففى المجال الاقتصادى يخفض تكلفة التعاملات والصفقات، وفى المجال السياسى يعزز رأس المال الاجتماعى نوع من الحياة القائمة على الترابط المدنى والتى تصبح ضرورية لنجاح الحكومة والديموقراطية المعاصرة.

ويظهر هذا الرأس المال ويتأكد عبر مراوحات لعبة "معضلة السجين"، وتكمن جذوره الأساسية فى عوامل مثل: الدين، التقاليد والخبرة التاريخية، والتجارب المشتركة، وتشكيلة من المعايير. وتظل هذه المعايير تراوح مبدأ التبادلية Reciprocity، الذى يكثفه مثال العلاقة بين الأصدقاء. ولكنه يمكن أن يوجد أيضاً فى كافة إمكانات التعامل بين كل الناس. ويصاحب ذلك بالضرورة وقائع ملازمة مثل الثقة، الشبكات الاجتماعية، المجتمع المدنى.

وتطور الجماعات التى يتجسد فيها رأس المال الاجتماعى ما يسميه مدى شعاع الثقة Radius of Trust، وهو أحد النتائج الحاسمة لفاعلية المعايير التعاونية. وتختلف حدود الثقة فى ارتباطها برأس المال الاجتماعى، فعندما يقدم رأس المال هذا تجسيدات ومظاهر إيجابية فإن حدود الثقة يمكن أن تتجاوز الجماعة ذاتها إلى خارجها من الجماعات، وعلى الجانب الآخر يمكن أن تتضاءل حدود الثقة لتصبح أقل من حدود العضوية فى داخل الجماعة ذاتها. ويعتبر فوكوياما أن مشكلة حدود الثقة بعد أساسى فى خلق علاقات التماسك، ويؤكد على أن مدى قدرة أعضاء الجماعة على التعاون مع أعضاء الجماعات الأخرى يعتبر محدد رئيسى لكفاءة رأس المال الاجتماعى وعملية التحديث الناجح(٢).

وكما يمكن أن تنتشر احتمالات التعاون وراء نطاق الجماعة التى يشاركها الفرد

---

(١) تعريف اتزيونر نقلاً عن:
Ismail Serag El-Din Vhristiaan Grootaert, Defining Social Capital: An Integrating View, World Bank. 2000, P. 45.

(٢) نعتمد فى عرض فوكوياما على مقاله التالى:
Social Capital, Civil Society and Development, Op. Cit., PP. 7-19.

المعايير "البيوريتانية" بلغة فيبر، يمكن أن تظهر أيضاً التجسيدات السلبية. فهناك نماذج عديدة من الجماعات التى تحقق تماسكها الداخلى على حساب من يقعون خارجها، وتتم معاملتهم بشك، وأحياناً بعدوان وكراهية صريحة. ولذا فإن التمتع برأس المال الاجتماعى، فى بعض الجماعات، يمكن أن يقدم أيضاً حضوراً خارجياً سلبياً بالنسبة للمجتمع الأكبر وهو نفس تأكيد كولمان السابق.

وبالنسبة لروبرت بوتنام - الذى يعتبر الآن من أهم الباحثين فى درس رأس المال الاجتماعى - فإن فرضيته الأساسية تتمثل فى أن أى إقليم يمتلك نسق اقتصادى يعمل بكفاءة مع مستوى عالى للتكامل السياسى، فإن مرد ذلك إلى التراكم الناجح لرأس المال الاجتماعى فى هذا الإقليم، ولا تتفاقم المشكلات الاجتماعية - وفقاً له - إلا كنتيجة لتدهور رأس المال الاجتماعى. ويتأكد ذلك فى دراسته الإمبيريقية ومقارنته لشمال إيطاليا وجنوبها، بالإضافة إلى اهتمامه بسياق الولايات المتحدة.

ويشير تعريف بوتنام - وهو من أكثر من التعريفات شهرة إلى أن رأس المال الاجتماعى هو مجموعة من الروابط الأفقية Horizontal Association بين أعضاء ذوى وضع اجتماعى متجانس وسط الناس، لديهم تأثير على إنتاجية المجتمع المحلى. وتتضمن هذه الروابط شبكات للعمل المدنى، والالتزامات المدنية، والمعايير الاجتماعية. ومن ثم تشجع على التعاون بهدف الفائدة المتبادلة للمجتمع المحلى.

فى ضوء ذلك ينظر إلى رأس المال الاجتماع كملامح فى حياة المجتمع المحلى، أو خصائص للتنظيم الاجتماعى فيه، تجعله أكثر إنتاجاً. فالمستوى العالى من الارتباطات، الثقة، والتبادلية تطور عملية التنمية، والأداء المؤسسى وأوجه النشاط المختلفة فى هذا المجتمع المحلى. ومن خلال ذلك يمكن أن نفهم لماذا تعمل وتنجز بعض الحكومات بطريقة أفضل من الأخرى. وكيف يتحد رأس المال الاجتماع مع رأس المال الطبيعى ورأس المال البشرى ليعظم النمو الاقتصادى والتطور الاجتماعى بشكل عام، ولكن الوضع الاستثنائى لرأس المال الاجتماعى ومصدر تميزه داخل منظومة رأس المال يكمن فى قدرته على تعزيز وتجويد الاستثمارات فى كل من رأس المال الطبيعى والبشرى. ومن الطبيعى أن تكون العلاقة بين أشكال رأس المال المختلفة قائمة على التتامّ، فهى ليست بدائل متنافسة.

وللمحافظة على رأس المال الاجتماعى لابد من تجنب عوامل تدهوره أو تدميره، ولذلك يؤكد على ضرورة تجنب تآكل الثقة الاجتماعية والارتباط النشط بالمجتمع

المحلى. وهنا تظهر أهمية السياسة الحكيمة التى يمكن أن تلعب دوراً مشجعاً فى تشكيل رأس المال الاجتماعى، كما أن هذا الرأس مال يستطيع بالمقابل تحسين أداء الفعل السياسى.

وفى ضوء هذا يوجز بوتنام ثلاثة عناصر تجعل من رأس المال الاجتماعى دعامة أساسية للحكومة الصالحة والتقدم الاقتصادى: أولاً، ثقة لها تأثير إيجابى على الحياة الاجتماعية، تتكشف من خلال تبنى شبكات الارتباط المدنى معايير متينة للتبادل المعمم Generyalized Reciprocity. ثانياً، شبكات مدنية تشجع التنسيق والاتصال وتهتم بتدفق المعلومات لتحقيق جدارة هذه الشبكات بالثقة من جانب الأعضاء. ثالثاً، استدماج تراث نجاح خبرات التعاون الماضية فى داخل الشبكات، والتى تفيد كنماذج ثقافية للتعاون فى المستقبل(١).

ومن الواضح أن مفهوم بوتنام ينطوى على افتراضين الأول، شبكات ومعايير ترتبط واقعياً، الثانى نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة.

ويعتبر إسهام سراج الدين وجروتارت من الإسهامات الحديثة فى مناقشات رأس المال الاجتماعى ودوره فى تعزيز المؤازرة المتواصلة لأسباب الحياة، ووفقاً لهما يشبه هذا النوع من رأس المال المادة اللاصقة التى تمسك المجتمعات ببعضها البعض، ولا يمكن تجاهله كضرورة وظيفية للنظام الاجتماعى، وهو يتشكل عبر درجة معينة من تماثل الهوية الثقافية، والمعايير المشتركة، والشعور بالاندماج فى جماعة. وبدونه تنهار طريقة عمل المجتمع ككل متحد(٢). وتسعى هذه الدراسة إلى تقديم وجهة نظر متكاملة لرأس المال الاجتماعى.

وتظهر بعض المفهومات واسعة النطاق، وتنطلق من نظره تاريخية ومؤسسية لرأس المال الاجتماعى، ويعبر عن هذا النوع من المفهومات مانكورولسون Mancur Olson، وروبرت باتس Robert Pates. ويشير ولسون، إلى أن تطور رأس المال الاجتماعى ينجز فى ظل علاقات مؤسسية رسمية وأبنية نظامية كالحكومات، والنظام

---

(١) نعتمد فى عرض مفهوم بوتنام على ما يلى:
- Robert D. Putnam, The Prosperous Community, Social Capital and Public Life, 1993, www.prospect.org/print/v4/13/putnam-r.html.
- Robert D. Putnam, The Decline of Civil Society: How Come? So What, ottawa, Ontario, Canada, 22 February, 1996, P. 4.
(2) Ismil Serageledin and Christiaan Grootaert, Defining Social Capital: An Integrating View, World Bank, 2000, PP. 40-58.

السياسى، وسيطرة القانون، ونظم المحاكم القضائية. وبذلك فالتغير المؤسسى هو الذى يشكل، طوال الوقت، أسلوب المجتمعات. ولا تطرح مسألة التعاون الإنسانى إلا من خلال التطور التاريخى للمؤسسات التى يمكن أن تخلق بيئة ملائمة للحلول التعاونية والتبادلات المركبة التى تمد فى النهاية بالنمو الاقتصادى والتطور الاجتماعى بشكل عام[١].

ويقدم باتس اهتماماً بالمؤسسات كاستثمار من خلال استكشاف التفاعل بين بحث رأس المال والإصلاحات التى تحدد إعادة بناء الاقتصاد لتعزيز مواقف هذا الأخير فى أسواق رأس المال الدولى[٢].

يكشف الاستعراض السابق لأهم المفهومات والقضايا فى تراث بحث رأس المال الاجتماعى عن قدر من الاختلاف فى حدود رؤية المفهوم، ويمكن تلخيصها فيما يلى: ١-المفهوم الذى يشير إلى الروابط المحلية الأفقية غير الرسمية. ٢-المفهوم الثانى يضيف الروابط التراتبية، ٣-ويشير المفهوم الثالث، وهو الأوسع نطاقاً إلى كل من الروابط المحلية الأفقية غير الرسمية والروابط التراتبية، بالإضافة إلى الأبنية القومية المتأسسة رسمياً مثل الحكومة وحكم القانون.

ورغم تراوح نطاق هذه المفهومات إلا أنها تشترك فى عديد من العناصر التالية[٣]:

- ربط المجالات الاقتصادية، الاجتماعية، والسياسية. والاشتراك فى تصور التأثير المتبادل لكلا من العلاقات الاجتماعية والنتائج الاقتصادية.
- التركيز على العلاقات فيما بين الفاعلين الاقتصاديين والأساليب التى تحسن بها المنظمات الرسمية وغير الرسمية فاعلية الأنشطة الاقتصادية وسطهم.
- تشير إلى أن العلاقات والمؤسسات الاجتماعية غير الرسمية مرغوبة لامتلاكها مظاهر خارجية إيجابية، وعندما لا يستطيع الأفراد الاستحواذ على جانب من هذه المظاهر الخارجية أو التلاؤم معها، فإن استثمارهم فى رأس المال الاجتماعى يميل إلى الانخفاض، وبالتالى تخليق دور للدعم العام.

---

(1) Mancar Olson, The Ris and Decline of Nations: Economic Growth, Stagflation, and Social Rigidities, 1982.

نقلاً عن:

An Annotated Bibliography. Op, Cit.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢.

(٣) إسماعيل سراج الدين وجروتارت، مرجع سابق، ص ٤٧.

- أنها تدرك أن العلاقات الاجتماعية مثلما يمكن أن تخلق وتطور نتائج مفيدة لتنمية المجتمع، فإنها يمكن أن تخلق أيضاً تأثيرات سلبية. ويبدو أن النتاج النهائى يعتمد على طبيعة تفاعلات العلاقات الأفقية فى مقابل الرأسية، ومدى توافر المعايير والقيم والسياق السياسى القانونى الأوسع.

وربما يمكن النظر إلى الجهود المتنوعة لتحديد مفهوم رأس المال الاجتماعى باعتبارها مستويات متدرجة النطاقات. التصور الأول[1]، يرى رأس المال الاجتماعى مجموعة من المهارات الاجتماعية للأفراد، والمقصود هنا نزوع الفرد إلى السلوك التعاونى، وحل الصراعات، والتسامح. التصور الثانى، وهو أكثر توسطاً - من التصور السابق ضيق النطاق- ويربط ما بين رأس المال والأسرة وروابط المجتمع المحلى وركائز المعايير الأساسية مثل: الثقة والتبادلية، مما ييسر التنسيق والتعاون بهدف المنفعة المتبادلة. وهنا تبرز الجوانب الإيجابية لرأس المال الاجتماعى المتصلة بأعضاء هذه الروابط. ولكن هذا التصور يظل صامتاً إلى حد كبير بشأن إمكانية عدم منح رأس المال الاجتماعى فوائده للمجتمع عامة أو بالنسبة إلى أن عضوية الجماعة ذاتها قد تستلزم تكلفة غير قليلة. التصور الثالث ويعكس رؤية بينية، ولكنها أكثر اتساعاً من التصور السابق، لذلك يتسع هنا مفهوم رأس المال الاجتماعى ليضم الروابط التى تتبدى فيها العلاقات بين الأعضاء بشكل متراتب وتغدو معها المشاركة فى القوة غير متكافئة. ويكون غرض صور الروابط والشبكات إنجاز مجموعة واسعة من الأهداف، فقد يخدم بعضها المصالح الخاصة للأعضاء فقط، بينما البعض الآخر يدفعه التزام بخدمة الأهداف العامة على المستوى الأرحب. ويؤكد هذا المفهوم أن الجماعات قد تلزم أعضائها بالتزامات غير اقتصادية، مع التزامها بالطبع بتزويدهم بالفوائد. التصور الرابع: وهو مستوى الماكرو فى هذا التراث المفاهيمى، وهو الأكثر شمولية، ويرى أن رأسمال المال الاجتماعى يرتكز على البيئة السياسية والاجتماعية التى تشكل الأبنية الاجتماعية وتسمح بتطوير المعايير. وتتضمن هذه البيئة العلاقات والأبنية المؤسسية الرسمية، مثل النظام السياسى والحكومة، وحكم القانون، والنسق القضائى، والحريات السياسية والمدنية. وبذلك يصبح للمؤسسات تأثير مهم على مجرى التطور بشكل عام.

ومن خلال المعالجة السابقة لأهم التصورات والمفهومات فى تراث بحث رأس المال الاجتماعى - الذى تفتتح مناقشاته خلال السنوات الأخيرة يمكن أن نلاحظ أن

---

(1) World Development Report 2000/2001, The World Bank, P. 129.

وجود بعض الاختلافات فى المنظورات التى تنشغل فى هـذه المناقشـات لا يعكـس تناقضات حادة فى المفهومات التى تم تطويرها حتى الآن. بقدر ما يشير إلـى تـدرج مواقع التأكيد. لذلك تتميز المفهومات المتعاقبة بقاسم مشترك يتلخص فى أن الاسـتثمار فى العلاقات الاجتماعية يجد عائدة فى ساحة السوق. والسوق كموقـع للتحليـل فـى مناقشات رأس المال الاجتماعى، قد يكون الاقتصاد، أو السياسة، أو العمل، أو المجتمع المحلى، أى فى تلك الساحة التى ينخرط فيها الأفراد وينسجوا تفـاعلاتهم، ويطـوروا خلالها شبكاتهم لإنتاج المنافع والمزايا.

رابعاً: قراءة أولية للمادة الميدانية

١- حول التكوين

كشفت الحالات التى تمت دراستها عن أن دراسة شرائح من الطبقة الوسـطى لا يجب أن ينفصل عن التعرف عن قرب على ظروف تكوين هذه الطبقة. فدرس تكـوين الطبقة هو درس لتاريخها، ومن ثم فهو جزء لا يتجزأ مـن تاريخ هـذه الطبقـة فـى الحاضر. وربما نتمكن من فهم كثير من ممارسات وقيم وتوجهات هذه الطبقة إذا رجعنا إلى تاريخها؛ أى إلى الظروف التى دفعـت بأعضائها إلى هذه المواقع التى يشـغلونها الآن. ويمكن الإشارة إلى الاعتبارات التالية بشأن تكوين الشرائح التى درست من الطبقة الوسطى:

١- **اختلاف ظروف النشأة:** القليل من الحالات التى درست له جذور حضرية خالصة، أما معظم الحالات فإن أصولها ريفية. ويختلف عمق الأصل الريفى مـن حالـة إلـى أخرى؛ فهناك حالات ما تزال تضع قدماً فى الريف وآخر فى المدينة، أى أنها حديثـة العهد بالريف. فقد نشأت وترعرعت فى الريف، ولكن ظروف التعليم والعمل فرضـت عليها الإقامة والاستقرار فى الحضر. وهناك حالات تمثل الجيل الأول الذى نشـأ فـى الحضر. حيث يكون ظرف الهجرة من الريف إلى الحضر ألصق بالوالد أو الجد. ويبقى فى النهاية عدد قليل من الحالات التى لا يكاد الأفراد فيها يتذكرون أصـولهم الريفيـة. يعنى ذلك أننا نستطيع أن نضع شرائح الطبقة الوسطى الحضرية على متصل متـدرج يقترب من واقع الريف، ويبتعد عنه بالتدريج وفقاً لتاريخ مغادرة القرية. فهناك أجـداد تركوا القرية قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وعدد هؤلاء قليل. أما النسـبة الغالبـة فكانت آباء تركوا القرية فيما بعد ثورة ١٩٥٢، خاصة فى فترة الستينيات، ويبقى بعـد

ذلك الأفراد الذين ما يزالون على علاقة وثيقة بالقرية، ومـــا تزال لهم علاقات قرابيـــة وثيقة بها. ونتوقع أن يترك هذا الظرف تأثيراً على تجانس هذه الفئة، ومن ثم ممارساتها وتوجهاتها.

٢- **التعليم قناة الحراك:** لا يمكن فهم تكوين هذه الشريحة من الطبقـــة الوســـطى دون النظر فى التعليم. لقد كان التعليم هو الوسيلة التى نقلت العديد من أبناء العمال أو بسطاء الفلاحين إلى مصاف الطبقة الوسطى. ولم يكن هذا الانتقال اقتصادياً فحسب، بل كـــان انتقالاً ثقافياً أيضاً. فقد نقل التعليم الفرد من عالم ثقافـــى تقليدى إلى عالم المهن بكل ما يعرف عنه من تخصص والتزام بقواعد صارمة فى العمل فضلاً عن الالتزام بـــالكود الأخلاقى لممارسة المهنة. وإذا ما تتبعنا الأصول الاجتماعية لـــبعض الحـــالات التـــى درست لاكتشفنا أن هذه النقلة لـــم تكن نقلة بسيطة ولا يجب أن تؤخذ على نحو غيـــر جاد. لقد كانت نقلة كبيـــرة من عالم إلى عالم آخر.

- أسرة ريفية متوسطة الحال يعمل فيها الأب عاملاً ويعول ثمانية أبناء وبنات.

- ومن أسرة فلاح بسيط يعمل "جناينى" يكافح فيها الأب فيؤجر أرضاً يزرعها بجانـــب عمله، ويحسن حاله بالتدريج، ويعلم أولاده.

- أسرة ذات نشأة حضرية كان الأب يعمل فى وظيفة فى التربية والتعليم، وكافح مـــن أجل تعليم أولاده الذين كان منهم من دخل كلية الصيدلة وسافر إلى ألمانيا ١٣ سنة.

- أسرة كان الأب فيها رجل ريفى دفعته ظروفه إلى العيش فى أحد الأحيـــاء القديمـــة بالقاهرة.

- أسرة يعمل فيها الأب عاملاً بسيطاً بمحافظة الدقهلية ويكافح من أجـــل تعلـــيم أولاده الذين أصبح أحدهم معيداً بكلية الصيدلة.

٣- **الحركة عبر المكان:** وتدخل الحركة عبر المكان كمتغير ثالث فـــى تكـــوين فئـــة أصحاب المهن كشريحة من الطبقة الوسطى. فقد كشفت الحالات التى درست عن وجود ثلاثة أنماط من الحركة عبر المكان فى تاريخ الحياة الخاصة بعدد من الحـــالات. الأول يرتبط بالانتقال من القرية إلى المدينة؛ والثانى يرتبط بالانتقال داخل الوطن من مكـــان إلى آخر لظروف التعليم أو العمل؛ والثالث يرتبط بالانتقال إلى الخـــارج للدراســـة أو العمل. وتكسب هذه الحركة المتنوعة عبر المكان هؤلاء الأفراد خبرات متعددة، كمـــا تعكس صوراً مختلفة من المشقة عبر عنها أحد الأفراد – ومهنته مدرس – بأنه كـــان

مثل الطيور المهاجرة "فالطيور تهاجر لأسباب متعددة.. فهى قد لا تجد صحتها فى هذا المكان وربما تهاجر بحثاً عن أى حاجة، وبرضه الإنسان كده". وتعرض الحركة عبر المكان لخبرات متعددة أمكن حصر بعضها من خلال الحالات:

- خبرة التعليم فى مدينة بالنسبة للذى نشأ فى الريف.
- خبرة التعليم خارج الوطن فى أوربا أو أمريكا .
- خبرة التنقل فى العمل داخل الوطن.
- خبرة التنقل مع الأسرة وفقا لطبيعة عمل الأب وتنقلاته.
- خبرة السفر إلى دول الخليج خاصة من أجل العمل .
- خبرة الزواج بأجنبية أثناء فترة الدراسة.
- خبرة الاحتكاك بجنسيات مختلفة أثناء العمل فى الخليج.

وكل هذه الخبرات هى التى تصنع ثقافة هؤلاء الأفراد، وهى التى تشكل آفاق تطلعاتهم المستقبلية.

٤- **الحركة عبر الزمان:** من الأمور اللافتة للنظر مدى الوعى الذى يكتسبه أعضاء هذه الشريحة عبر انتقالهم فى الزمن، وعبر الأحداث المختلفة التى يمرون بها. فالمسيرة ليست سهلة، ولا ميسورة فى كثير من الأحيان. ويمكن أن تنقسم هذه المسيرة إلى أربع مراحل رئيسية:

- **مرحلة النشأة:** بما فيها من قسوة فى أحيان كثيرة، وعائلة كبيرة الحجم، وترحال من مكان لآخر فى بعض الأحيان.
- **مرحلة التعليم:** وفيها كثير من الانتقال عبر المكان، ولكنها تمثل أيضاً انتقالا عبر الزمن حيث تنقل الفرد من الطفولة إلى النضج والبلوغ. وهذه مرحلة مليئة بالخبرات عن المدرسين والمدرسة والأصدقاء، ومظاهر الخوف، والسعادة، والفرح، والحزن، والنجاح والفشل.
- **مرحلة العمل:** وفيها خبرات متعددة داخل الوطن وخارجه.

وتتداخل مع بعض هذه المراحل، خاصة المرحلة الأخيرة، **مرحلة تكوين الأسرة، بما فيها من عقبات، ومن مظاهر نجاح أو فشل.**

وغالباً ما تؤدى هذه الحركة عبر الزمن إلى تحديد موقف واضح فى الحياة له معالم يمكن أن نكتشفها من هذه التصورات التى قدمها بعض المبحوثين عن حياتهم:

"*حياتى لم أحس أننى عملت فيها حاجة غلط بالعكس أنا كنت قاسى جداً على نفسى وعملت قيد على حريتى، وأنا لم أفكر فى نفسى ولكنى فضلت أن أعيش فى إطار الأسرة والعيلة والأب والأم... كان من الممكن أن أعيش حياتى بحرية وأعيش لنفسى والكثير يقولوا وأنت مالك بلاش تتدخل وتساعد أخواتك ولازم يتحملوا المسئولية.. لكن ده لا يعجبنى، وفى بعض الأحيان بيكون شديد وقاسى ولكن مع المخطئ فقط*". (صيدلى)

أنا غير راضى عن حياتى، يعنى أنا حاسس كشخص أنى محققتش حاجات كتير أنا عايزها وفيه أخطاء كتير عملتها فى حياتى أنا غير راضى عنها... لكن أخطائى لن تضر حد تانى غيرى... عادت علىّ وحدى وكنت أتحملها أنا لوحدى فقط لا غير، مع عدم الضرر بأى حد تانى". (صيدلى)

"*منذ صغرى وأمى تغرس فى مفهوم الرضا لأن الرضا يهون جميع المصائب ويحولها إلى رماد فبفضل الله استطعت أن أقف بجانب أخوتى ليكملوا دراستهم، وأستطعت أن أكون نفسى بنفسى ... وعندما أنظر إلى المشكلات التى واجهتنى اشعر بالفخر لأننى استطعت أن أتغلب على بعضها.. وما دام الرضا موجود فسوف يهون عليك كل شئ*". (طبيب بيطرى)

أنا حياتى بين البينين، أنا قلت أعيش لا أنا مفتح ولا درويش، محلاها العيشة بين البينين" (مدرس)

أنا إنسان صبور ومكافح... الواحد حقق أمور كويسه فى حياته، قدرت أعلم ولادى وأزوجهم وأعلمهم صفات وقيم تحميهم من الحياة. أينعم لم أترك لهم ثروة مادية ولكن تركت لهم ثروة أكبر... المهم أن تكون لديهم القيم والعلم اللى تجعله إزاى يجيبها". (مدير مدرسة)

٢- كوابح الاندماج الاجتماعى

يسهل علينا أن نؤكد عبر الحالات التى درست على أن الاندماج الاجتماعى يكاد يكون قليلاً إن لم يكن منعدماً. فثمة التفاف واضح حول الذات، وحول الأسرة بما تطرحه من مشاكل العيش أو مشاكل الأولاد. ففى مقابل الاهتمام الشديد بمشكلات

الأسرة وتربية الأولاد، وعلاقات الأهل، وتأكيد الروابط الدينية، فإن الرابطة المدنية أو السياسية تكاد تكون ضئيلة:

أ- فثمة إحجام عن عضوية المنظمات الأهلية وثمة قناعة تظهر بوضوح بعدم جدوى هذه العضوية. والكثير منهم ينظر إلى هذه التنظيمات المدنية بوصفها لا تمثل أحداً، سوى قلة قليلة من الأفراد لا يمثلون إلا أنفسهم. ويصل التطرف فى هذا الرأى إلى حد اتهام هذه الجمعيات بالعمالة خاصة جمعيات حقوق الإنسان.

ب- تؤكد بعض الحالات أن هذه التنظيمات المدنية لا يصلح لها إلا أناس معينين، لديهم الوقت. فالأفراد هنا لا يجدون وقتاً ولا يوفرون جهداً لهذا النوع من النشاط، والبعض يعتبره غير ذى فائدة.

ج- وينسحب نفس الشئ على عضوية الأحزاب، فهذه الأحزاب تفرض على الفرد قيود والتزامات قد لا يرغب فيها. وبعض هؤلاء لا يؤمن بفكرة الأحزاب، ويعتبر أنها لا تمثل إلا أفراداً ذوى طموح سياسى، ولا تنشط إلا أثناء الانتخابات ولتحقيق مصالح معينة.

ء- وفى مقابل هذا الرفض للاندماج الدينى أو السياسى، يظهر الاندماج النقابى كأحد العناصر التى تتأكد بشكل واضح. فمعظم الأفراد يحرصون على عضوية النقابة؛ وذلك لسبب واضح وهو أن ممارسة المهنة تتطلب عضوية النقابة، هذا فضلاً عن الحرص على الحصول على الخدمات المختلفة التى تقدمها النقابة.

وفى ضوء ذلك فقد يكون من المفيد بدلاً من الإسهاب فى شرح الاندماج الاجتماعى ومظاهره، أن نحاول إلقاء الضوء على موانعه أو كوابحه. وأن نطرح على أنفسنا أسئلة هامة: لماذا لا يحقق الإنسان توازناً بين مصالحه ومصالح المجتمع؟ ولماذا تنتهى مسيرته الحياتية إلى أحكام قاطعة بشأن التركيز على حياته الخاصة، وعلى تعليم أولاده، وعلى شئون أسرته فحسب؟ ولماذا تحدث هذه الإزاحة، نقصد تحويل أهداف الحياة برمتها تجاه الأسرة والأولاد؟ ولماذا تكتنف العلاقة الإيجابية بالوطن بعض مظاهر الشك وعدم اليقين؟ ولا ندعى أن بإمكاننا أن نقدم إجابات قاطعة على هذه الأسئلة فى هذه العجالة، ولكن حسبنا أن نفتح أفقاً للمناقشة حولها، وأن نعتبرها أسئلة تفتح إمكانية لطرح فرضية تراجع رأس المال الاجتماعى لدى الطبقة الوسطى طرحاً جاداً.

أ- قد يكون مفيداً فى البداية أن ننظر فى مدى شعور الفرد بالأمان فى حياته. فالأمان

هو نقطة الوصل الأولى فى هذه الرابطة المفترضة بين الإنسان ومجتمعه. ولقد كشفت الحالات التى درست عن بعض الحقائق التى يمكن سردها فيما يلى:

– أنه رغم الشعور بالأمان إلا أن الحذر واجب فى كل الأحوال خاصة من العلاقات مع الغير.

– أن الأمن الحقيقى فى الحياة هو أمن الأسرة والأولاد. فمع وجود الأهل والأحبة والأولاد يشعر الإنسان أن الدنيا بخير كما يشعر بالأمان والراحة النفسية.

– يكون اللجوء إلى الدين أحياناً هو مصدر الأمان الحقيقى، فالأمان هو العمار بين الإنسان وربه.

– أن سلوك الجيل الجديد يجعل الفرد يشعر بأن الحياة تسير إلى أسوأ، ومن ثم فلا يشعر بالأمن.

– كما أن كثيراً من مظاهر عدم الشعور بالأمان ترجع إلى المجهول والتفكير فى بكره. وكثيراً ما يرتبط هذا الشعور بالخوف من الموت قبل أن يحقق لأولاده بعض ما يرغب.

ب– ويغلف هذا الشعور بعدم الأمان الذى يكتنف حديث الأفراد، خوف من المستقبل خاصة فيما يتصل بالأبناء. فمعظم الحالات التى درست أظهرت قدراً من الخوف من المستقبل بالنسبة للأبناء. وكثيراً ما يرتبط الخوف من المستقبل فى أذهان الأباء بتقييمهم للظرف الراهن:

– فالمناخ الذى يوجد فيه الأولاد الآن لا يهيئ الفرصة للشباب الطموح.

– كما أن انتشار السلوكيات السلبية يؤدى إلى قلق كبير على المستقبل.

– ومن الأمور التى تولد القلق أيضاً الشعور بصعوبة الحياة وقلة فرص العمل.

– والحرب النفسية التى يعيش فيها الناس، خاصة مع زيادة السكان وانفتاح العالم على بعضه.

وغالباً ما يستجيب الآباء لهذه الظروف بالتركيز على التنشئة الدينية: تعليم القرآن، تعليم المبادئ الدينية. ويخلق هذا الوازع الدينى لدى البعض نظرة غيبية للمستقبل: "فالمستقبل بيد الله. لا فلوس هتنفع ولا مالية هتنفع". كما أن "قلوب العباد ومستقبلهم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء".

ج– وتستحق النظر إلى الذات وإنجازاتها فى مقابل النظره إلى الشعب وإنجازاته وقفة

خاصة. فالأفراد ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حققوا إنجازات ونجاحات عظيمة. ولكن فى المقابل فإن نظرتهم إلى مجموع الناس – إلى الشعب المصرى وإنجازاته – تكشف عن قدر من الاختلاف.

– ثمة مدح فى الشعب المصرى، فهو شعب عانى من الظلم، ويصبر على مر السنين، وهو شعب عاطفى ومؤمن، وهو شعب غلبان يعيش رغم الظروف الصعبة. ولكن فى المقابل فهو شعب لا يستطيع أن ينظر إلا تحت أرجله، "وسلوكياته هى أسوأ سلوكيات أشخاص على وجه الأرض من ناحية النظافة والزحام"؛ وهو شعب "حمال آسيه، عايش على الوعود ونفسه يشوف يوم فرح".

– وثمة تأكيد على أن الشعب المصرى قد حقق إنجازات قبل المشروعات الكبيرة، وتعليم الأبناء، وظهور بعض الفلتات قبل زويل ومجدى يعقوب، وما ظهر فى الطب من تطور. وفى المقابل فإن المشروعات الكبرى بداخلها فساد إدارى يهدد هذه الإنجازات، كما أن الشعب المصرى لم يحقق إنجازات "بسبب الخمول والكسل الذى تعود عليه"، كما أن الإنجازات إذا تحققت لا توازيها سلوكيات متطورة "فنحن تأخرنا كثيراً جداً فى سلوكياتنا .. الألفاظ اللى بتطلع زى الروشنة والطحن أخرتنا".

ء– وأخيراً يحق لنا أن ننظر فى ما يمكن أن نطلق عليه "ثقافة الامتعارض" أو "ثقافة القنوط" لدى هذه الشريحة من الطبقة الوسطى. حقيقة أن لدى الأفراد صورة عامة حول الرضا عن الحياة، وإن كان هذا الرضا يرتبط دائماً بما حقق الشخص من إنجازات خاصة فيما يتصل بالأسرة والأولاد. وهذا النوع من الرضا عبر عنه أحد الأفراد (صيدلى) بالقول: *أنا عموماً عامل لنفسى دولة هى أسرتى وأصدقائى وراضى عنها تماماً*". ويشى هذا الرضا – رغم تحققه – بانقسام فى التوجه ظهر جلياً فى هذا التعبير *فى مصر أحياناً تشعر أنها جميلة وأحياناً تشعر أنك عايز تهاجر ومترجعش*".

ومع وجود هذا النوع من الرضا، يطور الأشخاص نقداً لاذعاً لكل ما هو محيط بهم: الآخرين، والدولة، ومؤسساتها إلى حد يمكننا معه أن نسم هذا السلوك بأنه يلتف حول ثقافة فرعية خاصة يمكن أن نطلق عليها "ثقافة الامتعارض" أو "ثقافة القنوط". وهى ثقافة تظهر فى هذه الشريحة بشكل جلى، وتصبح هى مصدرها الأساسى. ولقد تلمسنا مظاهر هذه الثقافة، التى تعد كابحاً رئيسياً فى تطوير رأس مال اجتماعى إيجابى. من خلال نظرة الأفراد إلى التعليم وإلى وسائل الإعلام.

– فبالنسبة للتعليم، فلم نصادف حالة واحدة تحدثت بشكل إيجابى عن نظام التعليم، فهو تعليم فاشل، لا يلعب دوراً، ويعانى من التقلب وعدم الاستقرار، ولا تتماشى مناهجه مع العصر، وهو فى أسوأ حالاته.

– ولم يقرظ أى شخص دور وسائل الإعلام، واتهمها الجميع باتهامات صارخة، فهى تابعة للحكومة ولا تراعى عنصر الأخلاق والدين، وهى وسيلة لخراب بيوت كثيرة وانحراف شباب، وهى أسوأ حاجة موجودة فى البلد، وهى سبب مأساتنا كلنا ومأساة شبابنا، وهى فى واد والناس فى واد، وهى مقصرة فى حق الشعب.

وفى اعتقادنا أن دراسة كوابح الاندماج هذه كفيلة بأن تفتح أفقاً جديداً فى التحليل لموضوع رأس المال الاجتماعى لدى الشرائح المهنية من الطبقة الوسطى.

٣– رأس المال الاجتماعى: التشكل والهدم

كان الأمر جد محيرا حينما قرأت بعض السير الذاتية لبعض أفراد ينتمون إلى أسر متوسطة، (وذلك بعد قراءة التراث الخاص بموضوع رأس المال الاجتماعى) وقد تحدد الانتماء هنا طبقا لنوع المهن التى يعملون بها والتعليم الذى تلقوه، فهم جميعا من ذوى التعليم الحكومى العالى، ويشغلون مهنا فنية متخصصة: مهندسون – أطباء– محاسبون – محامون – صيادلة– مدرسون وقد كان التعليم هو مصدر حراكهم الاجتماعى على هذه الشريحة الوسطى فهم فى الأغلب مهاجرون من الريف إلى المدينة، عمل أباؤهم فى مهن دنيا ومتوسطة: عمال أجراء فى الأرض ، فلاحون يمتلكون قليلا من القراريط، صاحب محل خردوات صغير، موظف صغير فى مؤسسة خاصة أو عامة– تاجر.

ومصدر الحيرة، أنه على الرغم من شبه الإجماع بينهم، على أن هناك تحولا سلبيا طال القيم التى تربوا عليها، ألا وهى قيم التضامن والتعاون والثقة، تلك التى تشكل قيم رأس المال الاجتماعى والتى كانت الأشكال الجمعية التقليدية مثل الأسرة – العائلة – الجيرة – الأصدقاء هى وعائها الأساسى، وعلى الرغم من إشارتهم فى السرد الذاتى لحياتهم إلى علاقات الإكراه المادى والمعنوى التى خضعوا لها بأشكال مختلفة فى علاقتهم بأسرهم فى الطفولة، نقول على الرغم من ذلك، إلا أنهم لم يستشعروا ، ولم يشيروا إلى هذا الإكراه باعتباره شيئا غير مشروع أو مكروه، بل نظروا إليه فى ضوء منظومة قيمهم مؤكدين على دوره الوظيفى الإيجابى فى تنشئتهم، وفى الوقت ذاته الذى

تساعد فيه بعض القراءات فى رأس المال الاجتماعى على تشجيع ذات الاتجاه، حيث تبحث فى قيم رأس المال الاجتماعى فى معناه الإيجابى، والذى يكمن فى الأشكال والروابط الجمعية التقليدية، إلى الدرجة التى حدت بالبعض من المفكرين فى هذا السياق إلى المناداة بضرورة دمج الأشكال الجمعية الحديثة بما تراكم فى الأشكال الجمعية التقليدية من قيم رأس المال الاجتماعى.

ويجد المحلل الاجتماعى نفسه فى ورطه تحليلية واجتماعية فى الوقت ذاته، أيدافع عن قيم مفقودة ومرغوبة فى الوقت ذاته، ويبحث فى عوامل افتقادها الآن، أم يبحث فى معانى الإكراه المادى والمعنوى الكامن داخلها، ويتجاوز ما يراه أعضاء هذه الفئة من دور إيجابى لها، ويتعامل معها باعتبارها ليست قيما مطلقة فى الزمان والمكان، ولكنها تكتسب أشكالا متعددة، ومضامين مختلفة طبقا للسياقات الاجتماعية الممارسة فى إطارها؟

اخترنا الاتجاه الثانى فى تحليل الحالات المدروسة، وانطلقنا من تحليل الشروط التاريخية والآنية التى تكتسب فيها هذه القيم معنى سلبى خاص بإمكانيات تطور المجتمع، والشروط التى اكتسبت فى سياقها معنى إيجابى وذلك على مستوى الأشكال الجمعية التقليدية أو الأشكال الجمعية الحديثة مثل مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدنى مثل النقابات والأحزاب وكيف يتم فرض قيم رأس المال الاجتماعى فى كلا الشكلين عبر إكراهات مادية ومعنوية، ومتى وكيف يتحول فى لحظة ما إلى آليات قهر وسيطرة وإلى شكل من أشكال العنف الرمزى، الذى يستشعر الأفراد وجوده ويقاومونه بأشكال مختلفة، فى نفس الوقت الذى يبررونه ويقبلونه بل ويبحثون عنه.

وسنطرح بعض التساؤلات التى نحاور بها بعض أفراد الشرائح الوسطى فى المجتمع، ونحاور بها أيضا التراث النظرى المطروح فى موضوع رأس المال الاجتماعى ومن هذه التساؤلات:

(١) رأى بوتنام أن الطبقة الوسطى الأمريكية هى المسئولية تقليديا عن تراكم رأس المال الاجتماعى، وأن من بين أسباب انهيار رأس المال الاجتماعى هى عوامل الحراك الاجتماعى، فهل كان الحراك الاجتماعى الذى انتقل بمقتضاه أفراد دراستنا من شريحة دنيا إلى شريحة وسطى، مع ما يعنيه هذا من حراك جغرافى من الريف إلى المدينة، دوراً فى تقليص قيم رأس المال الاجتماعى، ومن ثم شعور أفراد عينتنا بافتقاد القيم التى تربوا عليها فى طفولتهم فى الريف؟ وهل أدى الاختلاف فى شكل الشبكات التى كانوا

ينتمون إليها فى الريف عن تلك التى وجدوها فى المدينة دوراً فى إحساسهم بالاغتراب عن الشبكات الحديثة، ومن ثم عدم القدرة على بناء علاقة إيجابية معها؟

(٢) هل أدى خروج المرأة فى هذه الشرائح للعمل دورا فى تقليص الوقت المتاح أمام الأسرة ككل فى إقامة علاقات تساهم فى تكوين رأس المال الاجتماعى مثلما حدث فى الأسرة الأمريكية المتوسطة؟ أم أن المرأة المصرية فى الشرائح الوسطى، والتى خرجت للعمل أمكنها تطوير أشكال جديدة لرأس المال الاجتماعى عبر علاقاتها فى مجال العمل، ومع الجيران، وفى محيط الأصدقاء؟

(٣) هل من الممكن أن يتحول التقسيم التاريخى الاجتماعى للأدور والقائم على اللامساواة فى توزيع القوة، وفى توزيع الالتزامات (التى تشكل عنصرا فى رأس المال الاجتاعى) والمسئوليات إلى مورد اجتماعى يستخدمه الأفراد فى تكوين رأس مال اجتماعى خاص بهم على حساب الآخرين، وما هى المناورات الاجتماعية التى يلجأ إليها الأفراد فى شبكاتهم الاجتماعية من أجل تكوين رأس مال اجتماعى؟ ونجد دلائل فى مادتنا الإمبيريقية تشير إلى هذا التساؤل فنجد فى علاقة الأخوة مع الأخ الأكبر، أو الذى نال قدرا عاليا من التعليم، وحدث له حراك صاعد يتجاوز وضعية أخوته التعليمية والاجتماعية بشكل عام، كيف يستثمر الأخوة الالتزامات التى يفرضها هذا الحراك على الأخ الصاعد، ويلزمونه معنويا تحت دعوى قيم التضامن والتعاون إلى القيام بأدوار إضافية إلى دوره المحدد تقليديا؟ على سبيل المثال الالتزام برعاية أبناء الأخوة؟ الالتزام بتجهيز الفتيات، والمساعدة المادية لهن؟ فهو إلزام غير رسمى، تدعمه أنماط من العقوبات المعنوية؟

وقد يستثمر الأخ هذه الالتزامات المفروضة عليه فى إحكام قبضته على موارد الأسرة المادية مثلا إذا وجدت واستثمارها لصالحه تحت دعاوى الثقة التى تخفى مصلحة خاصة به، فالمصالح الفردية الخاصة قد تكمن وراء قيم التضامن والتعاون والثقة.

وإذا ما اتفقنا مع هنك فلاب فى أن رأس المال الاجتماعى هو عملية تعبئة للموارد الاجتماعية، فإننا ومن خلال تحليل مادتنا الإمبيريقية نحاول أن نبحث فى الطريقة التى يتم عبرها توزيع هذه الموارد فى الأشكال الجمعية التقليدية وأيديولوجية تبرير التفاوت فى توزيع هذه الموارد تحت دعاوى التعاون والتضامن والثقة؟ ويمكننا تحليل الأدوار المختلفة مثل دور الزوج والزوجة فى علاقات الزواج – الأم والأبناء– الأب والأبناء.

(٤) لماذا وكيف تقلصت إمكانيات تكوين رأس مال اجتماعى، حيث أننا نراها قد وصلت إلى حدود الأسرة النووية وتوقفت عند ذلك المدى؟ وهل جاء تقلصها لصالح الشبكات الحديثة أم لصالح شكل وحيد من الأشكال الجمعية التقليدية ألا وهو الأسرة النووية والأصدقاء فى بعض الأحيان يقول أحد أصدقائنا من عينة البحث: *"أنا عامل نفسى دولة هية أسرتى وأصدقائى وراضى عنها تماما، وأنا بقدر أأقلم نفسى وأعمل دولة وأنا الزعيم بتاعها داخل نفسى، أنا بحب أعيش الاحساس ده، وبعمل فاصل ما بينى وبين الدولة الكبيرة خالص؟"*

(٥) لماذا تقلصت إمكانات تكوين رأس مال اجتماعى على المستوى الوطنى؟ لقد كانت مركزية السلطة تاريخيا فى مجتمعنا المصرى، وحسبنا رصد المفكر الكبير جمال حمدان من أجل تحقيق قيم التضامن والتعاون بين الناس، لماذا تقلص هذا الدور للسلطة المركزية، وتحول إلى النقيض مثلما يرى أفراد عينتنا؟

ما هو الدور الذى لعبته الأجهزة القمعية للدولة فى هذا السياق مثل الجيش والشرطة؟

ما هو الدور الذى تلعبه أجهزة الدولة الأيديولوجية مثل أجهزة الإعلام فى هذا الإطار؟

وكيف تكتسب قيم التضامن والتعاون والثقة فى ظل دولة غير ديمقراطية أشكالا قمعية تنتشر فى الفضاء الاجتماعى كله، فكما تقول نظريات رأس المال الاجتماعى أن الشفافية فى المعلومات وتدفقها عبر الأعضاء المكونين لشبكة ما يتيح خلق رصيد من الثقة بينهم.

(٦) ما هو الدور الذى تلعبه السلطة السياسية فى تقليص إمكانات نمو قيم رأس المال الاجتماعى فى شبكات المجتمع المدنى مثل الأحزاب والنقابات والمنظمات الأهلية؟

فالسلطة تلعب عبر أجهزة إعلامها دورا فى إشاعة عدم الثقة بمؤسسات ومنظمات المجتمع المدنى، كآلية من آليات السيطرة على هذه المؤسسات وتحجيمها حتى لا تتجاوز الخطوط الحمراء المحددة لها، وقد أشار بعض أعضاء عينتنا إلى عدم الثقة بهذه المؤسسات، ولم يكن لديهم ما يدعم الثقة تلك، سوى ما تشيعه أجهزة الإعلام عن علاقة مؤسسات ومنظمات المجتمع المدنى بالمنظمات الغربية.

(٧) كيف اكتسبت مؤسسات المجتمع المدنى ملامح وسمات السلطة المهيمنة عليها ، وحاولت بعضها أن تخفى المصالح الخاصة لبعض أفرادها تحت دعاوى التعاون والتضامن، وكيف ولماذا تقلصت مساحات الثقة داخلها بين مستوياتها المختلفة، وذلك من خلال تقييم وتحليل بعض أفراد عينتنا لتجربتهم فى هذه المؤسسات.

(٨) كيف استطاعت بعض الجماعات فى المجتمع أن تحول قيم رأس المال الاجتماعى

إلى رأس مال سياسى؟ على سبيل المثال: جماعة الأخوان المسلمين التى استهدفت من خلالها تقديمها للعديد من الخدمات الاجتماعية أن تخلق موردا اجتماعيا تستثمره تكتيكيا من أجل استراتيجية سياسية بعيدة المدى. فتشكيل واستثمار رأس المال الاجتماعى هنا لم يكن دعما للمخزون القائم فى ثقافة المجتمع من قيم رأس المال الاجتماعى، ولكنه بمثابة تحدى للسلطة الرسمية. وسنرصد تجربة صديق عبر هذه الرحلة.

(٩) كيف تلعب بعض العناصر الثقافية (الحسد على سبيل المثال) دورا فى تقليص إماكنية تراكم رأس المال الاجتماعى داخل بعض الشرائح الوسطى وخاصة فيما يتعلق بالثقة! أشار البعض إلى أن من أهم عوامل تقلص العلاقة بالجيران والزملاء والأصدقاء والأقارب عدم الثقة التى مردها خوف كل منهم من حسد الآخر له على ما أصابه من صعود اجتماعى عملا بالمثل المصرى (دارى على شمعتك).

وهذا يدفعنا للبحث عن القيم المناهضة لتدعيم قيم رأس المال الاجتماعى وخاصة قيم الثقة والتضامن والتعاون وكيف تتحول بعض القيم من صورة إيجابية تدعم التضامن والتعاون إلى قيمة سلبية تبرر وتشجع التسلط والإكراه المعنوى مثل قيمة العرفان بالجميل التى هى نتاج لتعاون وتضامن بين شخص وآخر عاونه أو قدم له خدمة ما، كيف تتحول هذه القيمة فى لحظة مغايرة إلى ابتزاز للشخص المقدمة له الخدمة، وقيد معنوى على الشخص يجعله ينفر من فكرة التعاون والتضامن، وصورة تصدر لدى الآخرين عن أن الالتزامات التى سوف تفرض عليهم إذا ما قبلوا التضامن والتعاون هى أكثر من المكاسب التى سيحصلون عليها إذا ما وافقوا عليه. إننا بحاجة إلى تحليل ما يحويه مخزوننا الثقافى وغربلة ما يدعم وما يعوق عملية تكوين رأس المال الاجتماعى.

(١٠) مفهوم العصبية كما طرحه ابن خلدون ، كعنصر فاعل فى تكوين الدول، وكيف انسحب هذا المفهوم بقيمه والتى تتماثل مع قيم رأس المال الاجتماعى إلى مستوى الأسرة النووية، أى كيف يكمن داخل الجماعة، ولا ينتشر عبر الجماعات التى تكون المجتمع.

إن ديناميات تشكل وهدم رأس المال الاجتماعى لا يقتصر تفسيرها على سلوك الأفراد، بوصفها ناتج أعمال فردية مجمعة، ولكن النظام بكل مكوناته ومستوياته (السياسى- الثقافى- الاقتصادى) تلعب دورا فى هذا الهدم والتشكل ونحن نسعى من خلال تحليل مادتنا الإمبيريقية، ومن خلال المادة التاريخية المتاحة أن نحلل هذه العوامل فى سياق بعض شرائح الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى.